محاضرة 08: الأدب في الدولة الحفصيّة

أولا/الدّولة الحفصيّة (634هـ-981هـ):

الدّولة الحفصيّة هي الدّولة الإسلاميّة الرابعة بالبلاد التونسية وقد دامت 347 سنة هجرية، مؤسّسها هو "أبو زكرياء يحي الحفصي" بن أبي محمد عبد الواحد حفص الهنتاتي، نسبة إلى هنتاتة إحدى فروع قبيلة المصامدة البربرية الّتي كانت تقيم بالمغرب الأقصى، وقد تمكّن من تأسيسها عندما كان واليا من قبل الدولة الموحدية بالمغرب الأقصى الّتي كانت البلاد التونسية تابعة لها منذ أن أصبحت في حوزتها سنة 555هـ؛ إذ اغتنم فرصة تراجع أمر خلفاء تلك الدولة وضعفهم، واختلال سلطتهم، فأعلن الاستقلال، وتأسيس الدولة الحفصية فلم يلق أيّة معارضة من أحد، وانقادت إليه البلاد طائعة سنة 634هـ =1237م، وجدّه أبو حفص، ووالده "أبو محمد عبد الواحد" وقد بلغ عدد أمراء الدولة الحفصية 24 أميرا.

كانت منطقة نفوذ الدّولة الحفصية تشمل: البلاد التونسية، وطرابلس، ومقاطعة قسنطينة من بلاد الجزائر، وكانت منقسمة إلى مناطق على رأس كل منطقة والٍ، وفي عهد هذه الدّولة كانت البلاد مستقلة مدة 308 سنة الأولى، ومحمية إسبانية مدة 39 سنة الأخيرة، وكان نظام الحكم وراثيا، وبقيت مدينة تونس عاصمة للبلاد، إذ قد اتّخذت في العهد الموحدي، ووقع الاختيار عليها لأهميتها التّاريخية ولحسن موقعها.

ثانيا/ الأدب في الدولة الحفصيّة:

1.الشّعر:

ظهرت العديد من الأغراض الشّعرية في العهد الحفصي، وتنوعت هذه الأغراض بتنوع المضامين والموضوعات الّتي تعبّر عنها، ومن أبرزها نذكر:

1.1.المدح:

المدح هو ذكر الشّاعر لمحاسن الممدوح متبعا طريقة الإيضاح والإشادة، واعتماد المعاني الجزلة والألفاظ النقية، ومن الموضوعات الّتي شاعت في غرض المدح لدى الشّعراء الحفصيين نجد "**مدح الخلفاء والأمراء**" حيث اتّسمت مدائحهم الّتي مدحوا فيها خلفاء بني حفص وأمرائهم بسِمة التّجديد في المعاني المدحيّة، فقد ظهرت بالإضافة إلى الصفات التّقليديّة الّتي وسموهم بها مثل الشّجاعة والجرأة والإقدام في الحروب، وحسن الأخلاق معانٍ جديدة صارت تحتل المرتبة الأولى في قصائدهم المدحيّة.

لقد كان هؤلاء الشّعراء لسان الدّعوة الحفصيّة، يقومون بالدّعاية للمذهب الجديد والمبادئ الدّينية، ونراهم يواكبون أهم الأحداث السياسية والثقافية والحربيّة الّتي عاشتها الدّولة الحفصيّة، فسجلوها في قصائدهم المدحيّة وأشاروا إلى الفتن والمعارك الّتي خاضها الخلفاء والأمراء الحفصيّون، ومجّدوا المنشآت الثقافية والعمرانيّة الّتي أحدثوها.

وقد وصف الشّعراء المادحون سلاطين بني حفص في أجلى صورة مثالية من الأخلاق وحسن السياسة والسّلوك المتسم بالحكمة والشّجاعة وأصالة الرّأي، وتميّزت هذه المدحيات بدقة التّصوير؛ فنجدها عامة متينة البناء، جزلة المعاني، نقية الألفاظ غير مبتذلة ولا سوقية، ويمكن أن نفصل الأغراض المدحية إلى خمسة عناصر: المدح بالنسبة، المدح بالخصال الفكرية، المدح بالانتصارات العسكريّة والتغلب على الأعداء، المدح بتشييد المنشآت العمرانية والحضارية مثل القصور.

نجد في **المدح بالنسبة** الشّعراء يمدحون ملوك بني حفص بنسبتهم وبأنّهم ينتمون إلى الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب وبأنّهم من سلالة أبي حفص عمر الهنتاتي من أصحاب المهدي بن تومرت، يقول ابن خلدون في مدح الخليفة أبي العباس أحمد ناسبا آل حفص إلى عمر بن الخطاب:

قوم أبو حفص أب لهم وما*أدراك والفاروق جد أول**

وكانت أهم صفة يلح عليها أحمد الخلوف في مدائحه لأبي عمرو عثمان والأمير محمد المسعودي هي النسبة إلى الفاروق، يقول:

إذا أسرة الفاروق قامت لمفخر*أقرت لعلياها السراة بلا نكر**

وفي **المدح بالخصال الفكرية** نجد طيلة العهد الحفصي قصائد المدح تهتم بمدح الخليفة بالأدب والعلم ووفرة العقل ورجاحة الفكر، يقول حازم القرطاجني في مدح أبي زكرياء:

له العلم والعليا، له الحلم والحجى*له الجود تهمي بالنضار سحائبه**

أمّا المدائح الخاصة **بالانتصارات العسكرية** فقد أرّخت للأحداث، وقد كتب حازم قصيدة وصف فيها انهزام الأعراب متشمتا بهم ورسم قوة المستنصر وأطوار المعركة الّتي خاضها ضدهم:

بلغت في الأعداء كلّ مراد*وغدا لك التّأييد ذا إسعاد**

طوقتهم بظباك إذ لم يشكروا*ما طوقوا من أنعم وأيادي**

وفي **مدح العلماء والأدباء** يقول حازم مادحا أبا عبد الله أمين سر الخليفة:

يا سيدي في الورى ويا سندي*ومن نداه يزين كل ندى**

أنت فقيه وعالم وأنا*شاعرك المرتجى نوال يد**

2.1.المدح النبوي:

نشأت لدى بعض الشّعراء الحفصيين رغبة في التّعبير عن العواطف الدّينية فنظموا المدائح النبوية ودبجوا القصائد الدّينية خاصة منذ أواخر العهد الزيري حين بدأ النصارى يشنون الحملات لاحتلال المدن التونسية، ونجد في الأدب الحفصي عناية أكثر بالأدب الدّيني ميلا شديدا إليه نظما وشرحا خاصة في أواخر العهد الحفصي حين اشتدت الفتن وكثرت الحروب.

وتبتدئ المدحية النبوية إمّا مباشرة بالتعلق بالرسول وبيان محبته مثل قصيدة ابن الخلوف الّتي أولها:

عليك توكلي ولك افتقاري*ومنك تطلبي وبك انتصاري**

وفيك محبتي وإليك أمري*وهل إلاك قصدي واختياري**

وإمّا بمقدمة غزلية مثل قصائد الخلوف المعنونة بـ "استرواح القبول بمدح طه الرسول":

لمرسل الصدغ في خديه آيات*قامت بتصديق دعواه الأدلات**

وللعذار حديث صح مسنده*إذا أخرجته على الخد الروايات**

ويقول الخلوف في قصيدة أخرى:

يا أمة المصطفى طه أبشروا فلكم*من مشرب الاصطفا ريّ وتنهيل**

وليكفكم شرفا في الدّهر أن لكم**بأشرف المرسلين العز والطول**

3.1.الإخوانيات:

ترد القصائد الإخوانية مضمنة عادة في الرسائل النثرية تتصدرها أو تتعقبها أو تتخللها، وقد نظمها صاحبها ليحلي بها نثره، وليبرز للمرسل له تفننه في الشّعر والنّثر، ويعبر عن إكرامه له ويزيد تودادا إليه وقربا.

كتب أحمد الغساني قصيدة لأبي الحسن بن سعيد أحسن يدعوه فيها إلى المطارحة الأدبيّة، ويبدي في قصيدته حيرته وشوقه إلى خليله:

إيه أبا الحسن استمع شدوى كما*يصغي الحمام إلى الحمام ترنما**

وأجل جفونك في سطور لم تكن*لولا تصعد زفرتي أن تفهما**

وإذا لمحت فريدة منها فلا*تعجب لناظمها فمنك تعلما**

بالله طارحني الحديث فإنّني*أهوى حديثك مفصحا ومجمجما**

4.1.الفخر:

الافتخار هو المدح نفسه إلاّ أنّ الشّاعر يخص به نفسه وقومه، وكل ما حسن في المدح حسن في الافتخار، وقد افتخر الشّعراء الحفصيون **بالخلفاء والأمراء** وافتخروا بشجاعتهم وإقدامهم في الغارات، وتباهوا بحسن سياستهم للرعية وقيامهم بشؤونها، قال أبو زكرياء الحفصي:

وما للناس منا غير رعي*يفيدهم رفاها وانتـــفاعا**

فيمنعهم وما شبعوا مضاما*ويوسعهم وما سغبوا انتجاعا**

بنى لي المجد أباء كرام*ورثنا مجدهم بـــاعا فباعا**

كما افتخروا **بالعلماء والأدباء** مثل ابن الخلوف الّذي افتخر بنفسه وما اكتسبه من مجد، فيتباهى بنبوغه في الشعر وبراعته في النظم:

بالخلوف النظم في الأفق الرفيع*وبه قد صار في أعلى الرتب**

شاعر الدنيا أمام أهل البديع*قيم النّظام، شيخ أهل الأدب**

5.1.الرّثاء:

بكى شعراء العهد الحفصي أمواتهم من الأقرباء أو الأصدقاء، من الخلفاء والرؤساء أو العلماء والأدباء، وفي رثاء ابنه محمد يقول أحمد بن الخلوف:

لهفي! وهل نافعي لهفي على ولد*إذا لجأتُ لصبر فيه لـــم أجـــد**

لهفي! وهل نافعي لهفي على قمر*رماه بالخسف نحس الطالع النكد**

لهفي ولهف بني الأيام قـــاطبة*على محمد إذ ولـــى ولـــم يعد**

وكل عين بماء الدمع في غـــرق*وكل قلب بـــنار الشوق مـــــتقد**

ويختص **رثاء الأبناء** بحرارة العاطفة وصدق الشّعور، وشدّة التّألم لفقد فلذة الكبد.

أمّا رثاء **الأمراء والخلفاء** نجد أبا زكرياء يرثي ابنه وولي عهده أبي يحي زكرياء في قصيدة يتوجع فيها، كما يبدو من تعابيرها صرخ فيها بألم وشجى:

أأميرنا وكفى بنا ولها عــرى*ألبابنا ألا تجيــب الـداعيا**

ما بال نورك قد خبا ولطالما*كانت أشعته تضيء الناديا**

ولأبي الفضل قصيدة في **رثاء العلماء والأدباء** يرثي فيها حازم القرطاجني ومحمد بن أبي تميم وقد توفيا بتونس سنة 684 هـ:

ثوى ابن أبي تميم، ثــم حــازم*فحزني بعد دفنهما ملازم**

هما الشّيخان، إن ذكرت شيوخ*تشد إلى لقائهم الحيازم**

كما كتب الشعراء الحفصيون في **رثاء المدن**، وقد قيلت قصيدة في رثاء العاصمة التونسية حين نكبها الإسبان وخرّبوا معالمها وشرّدوا أهلها مؤذنين بنهاية العهد الحفصي، فبكى الشاعر مدينته بنفس والهة معددا محاسنها ومفاخرها واصفا جمالها، نادبا حضارتها المنقرضة، فتتوالى على لسانه عبارات الغم والحرقة والحزن:

هي الحضرة العليا مدينـة تــونس*أنيسة إنسان رآهـــا بإنســـان**

إلى أن رمتها الحادثات بـــأسهم*وسلت عليها سيف بغي وعدوان**

فما لبثت تلك المحاسن أن عفت*وأقفر ربع الأنس من بعد سكان**

فأعظم برزء خص خير مـــــدينة*وخير أناس بين عـــــجم وعربان**

6.1.الهجاء:

كتب بعض الشعراء الحفصيين في غرض الهجاء واشتهروا به، وعُرفوا بسلاطة ألسنتهم والإفحاش في السب، والتعرض إلى الناس بالإساءة والتشنيع، ويمكن أن نميّز في هذا الغرض بين هجاء الأشخاص وهجاء المدن.

يقوم **هجاء الأشخاص** على المبالغة في السب والشتم، والسخرية والتهكم والاستهزاء ويعتمد خاصة على سلب المهجو من المحاسن والفضائل وخدش كرامته، والتعرض إلى صيته بالإيذاء والنكاية بالعديد من المعايب الأخلاقية والخلقية، من ذلك هجاء أبي عبد الله محمد المراكشي الكفيف لابن عرفة وطريقته في التدريس:

أتيت دروسهم يوما صباحا*فإن شئت استمع بيت القصيده**

سمعتُ التنابح والتنــادي*كأنّهم الــكلاب على الطريدة**

أمّا **رثاء المدن** فنجد قصيدة هجائية لأبي إبراهيم بن حسينة في ذمّ سبخة التكامرت في أقصى الجنوب الغربي التونسي يصف فيها الأهوال والعناء آناء الليل والنهار، ويصور الرياح الهوج المحملة بالرمال التي تكاد تهلك المسافرين:

قطعنا التكامرت سرى وسرنا*صبيحة يومنا حتى الــزوال**

فلا تسأل لما قاسيــت فيه*من الأهوال والكــرب الثقال**

عناء ليس يشبهه عــــناء*يضيق لديه متسع الــمقال**

وليل لا تسير به نــــجوم*كأن نيطت إلى بعض الجبال**

وأرياح تُصم الأذن مــنها*تهب عن اليمين مــع الشمال**

7.1.الغزل:

يحتل الغزل في الشّعر الحفصي مكانة مهمة، وتغلب على الأشعار الغزلية الحفصية المعاني الرقيقة والصور الجميلة، والأسلوب السلس واللهجة الغنائية الواضحة، فنجد عندهم نغما غزليا خاصا يجند له الشاعر الحفصي كل طاقته الشعرية، ويستخدم كل إمكاناته اللغوية والثقافية معتمدا على موهبته وهو يصف الحبيب ويتفنن في وصفه ويدققه حتى نتصور المرأة المعشوقة بكل محاسنها في أجلى مظهرها الحسي، مجسما إياها بجمالها ولون بشرتها وعينيها وشعرها الطويل، وقامتها، يقول محمد الظريف معبرا عن شوقه وآلامه وحرمانه من الوصال:

فقلت: ما بك؟ صف لي ما ابتليت به*ما بال جسمك مكلوم الحشا، فان؟**

هيجت لي لوعة في القلب ساكنـــة*خفض قليلا فقد هيجـــت أحزاني**

فقال: أبكي لألف كـــان يألفنـــي*وكنت أهواه في الـــــدنيا ويهواني**

قضى الزمان بضعفي حـــين فارقني*كما تراني فريدا فـــوق أغصاني**

8.1.الوصف:

نجد الوصف في كل غرض من أغراض الشّعر، وقد وصف شعراء تونس في العهد الحفصي الطبيعة ببعض عناصرها والمنشآت العمرانية الجديدة الّتي انشأها خلفاء بني حفص، وشتى مظاهر حضارة تونس وقد أظهروها كما تتجلى في أعينهم وخيالهم فرسموها في أشعارهم في لوحات فنية تعبر في أغلب الأحيان عن أحاسيسهم وعواطفهم ونظرتهم الخاصة إلى ما يصفون، وكمثال على وصف الطبيعة يقول محمد الظريف:

أما ترى الليل أذكر الصباح على*جيوشـــــه تبعا في جنبه أفلا**

والروض أصبح يجلى في غلائله*وأنشد الطير في الغصن وارتجلا**

أضف إلى الأغراض السابقة كتب الشعراء الحفصيون في الخمريات، والمواعظ الدينية والأخلاقية، وكذا في نجدة الأندلس.

02/النّثر:

لقد نشطت حركة التّأليف في العهد الحفصي في مختلف الفنون والآداب، في اللغة والنحو والصرف والفقه والتّاريخ والتّرجمة، فألّف الكتّاب والأدباء والنحاة والفقهاء الكتب، وقد دعت حركة التّدريس بمختلف بمختلف المدارس إلى وضع الشّروح والمختصرات الّتي كانت أساسا لتلقين العلم، ومن النصوص النّثرية الّتي كتب فيها بنو حفص نذكر:

1.2.الرّسائل:

كتبوا في الرسائل الديوانية والإخوانية؛ أمّا الدّيوانية فقد كانت تصدر عن البلاط الحفصي بتونس إلى أمراء مصر تبتدئ بعبارة "من فلان أمير المؤمنين بن فلان أمير المؤمنين ... إلى أخينا فلان" ويدعو لهم ثم يذكر يؤتي بالسلام والتحية ثم يذكر الموضوع ثم تُختم المكاتبة.

وأورد "القلقشندي" نموذجا من هذه المكاتبات متمثلا في نسخة من رسالة وجهها السلطان أبو العباس أحمد بن أبي يحيى أبي بكر إلى السلطان المصري الظاهر برقوق يعلمه فيه بانتصار أسطوله البحري على النصارى في معركة "غودش" ويصف فيها وقائع هذا الانتصار.

وتقوم الرسالة على السجع وتوازن الجمل والاقتباسات والعديد من المحسنات البديعية وتتضمن كثيرا من الإشارات التّاريخية وتعبر عن الودّ للسلطان المصري، يقول في جزء منها: «وكان من جزائرهم (النصارى) المعترضة شجا في حلوق الخطار، ومتجشمي الأخطار، وركاب البحار، من الحجاج والتجار، جزيرة غودش وبها من أعداء الله جم كثير، وجمع كبير، فأرسلنا عليهم من أسطولنا المنصور غربانا نعقت عليهم...».

أمّا الرّسائل الإخوانية فتتمثل في تبادلها بين الأدباء والأصدقاء أو الأقارب في العهد الحفصي، ويحرص فيها الأديب على الكتابة بأسلوب يتسم بالإكثار من السجع وحشر الغريب وتضمين

الأمثال والتوريات اللطيفة، والتعبير عن لواعج الحنين ومشاعر التوق وعواطف الود والإخاء والوفاء، ولعبد الله التجاني كتاب "نفحات النسرين في مخاطبة ابن شبرين" جمع فيه مخاطباته للشاعر السبتي ومجاوبات هذا الأخير له، وقد تبارى المراسلان في التفنن في النثر والشعر للتعبير عن أسمى عواطف المحبة والودّ.

2.2.الخطب والوصايا وكتب الأمثال والحكم:

ازدهرت الخطابة الدّينية في العهد الحفصي وتعدّدت جوامع الخطبة بإفريقية خاصة بتونس العاصمة، واشتهر علماء كثيرون كالإمام محمد بن عرفة، وابن ناجي وتبتدئ خطبهم بالحمدلة والتصلية، وتميّزت برصف الجمل وتنميقها بالسجع وزخرفتها بسائر المحسنات البديعية، أمّا الوصايا فقد خلّف بعض الأدباء وصايا أوصوا بها أبناءهم تتضمن قواعد للسلوك في المجتمع ومع الله، وللوصايا صلة بأدب المواعظ والحكم والأمثال؛ إذ تحثّ على حسن الأخلاق والتّحلي بجملة من الشيم، ومن الّذين كتبوا في الوصايا نذكر أبو زكرياء الأول الحفصي، ومحمد الظّريف، ومحمد بن عبدالله القلشاني وكتبوا بأسلوب بعيد عن التنميق والتعقيد، يتصف بالإيجاز وجزالة العبارة ويتخللها السجع والمحسنات البلاغية.

3.2.المختصرات والشّروح:

ألّف الأدباء الحفصيون مؤلفات لخصوا فيها أمهات كتب في التاريخ والنحو والبلاغة والفقه والحديث... فلُخصت لطولها وتفرع المسائل بها ليسهل تناولها وتداولها، منها "فتح الباري في شرح صحيح البخاري" لمحمد الرصاع، و"التسهيل والتقريب والتصحيح لرواية الجامع الصحيح" لابن حجر، وفي الشروح نجد "شرح بانت سعاد لكعب بن زهير"، وشرح محمد بن القوبع لديوان المتنبي، و"بلوغ الأماني في شرح قصيدة الدماميني" لمحمد الزركشي، وشرح ابن شباط لتخميسة الشقراطسية عنوانه" صلة السمط وسمة المرط".

بالإضافة إلى النصوص النثرية السابقة كتب أدباء العهد الحفصي أيضا في السيرة الذاتية، والفهارس، وأدب الرحلة، وفي التاريخ والتراجم، وكذا التّآليف الدّينية والصوفية، والإجازات العلمية، وكتب النحو والصرف والفقه والبلاغ، والنقد الأدبي.

وعموما نقول إنّ العهد الحفصي الممتد أكثر من ثلاثة قرون ونصف القرن يعدّ بحق عهدا ذهبيا من حيث الحركة الأدبيّة والنشاط الثقافي والحياة الفكرية؛ إذ جادت لنا فترات هذا العهد بأدب ناضج وبأعلام مشاهير تجاوزت شهرتهم حدود إفريقية إلى المغرب الأقصى والأندلس والمشرق.

المراجع:

-أحمد بن عامر، الدولة الحفصية؛ صفات خالدة من تاريخنا المجيد، دار الكتب المشرقية، تونس، د.ت.

-أحمد الطويلي، الحياة الأدبية بتونس في العهد الحفصي، مج: 2، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القيروان، 1996.